الفصل الثالث

زارادشت

شخصية تخفت فى أسطورة :

لم يكن ملك الفرس الذى أظهر هذا التسامح الدينى لعقائد الشعوب الخاضعة له ، لم يكن رسميا إلا « زارادشتيًا » ومن المحتمل أن حكماء الشرق الثلاثة الذين وجاءوا ، طبقاً لرواية الإنجيل ، إلى أورشليم قائلين : « أين هو المولود ملك اليهود ؟ فإننا رأينا نجمه فى المشرق وأتينا لنسجد له »[1] ، من المحتمل أن كانوا كهنة يعتنقون نفس العقيدة . فمن كان زارادشت ؟

وكما هو الحال مع كافة العقائد الأخرى ، هناك مدرسة واحدة من المدارس الفكرية تنادى بأنه لم يكن له وجود على الإطلاق . ولاشك أن ما نعرفه عن حياته أقل مما نعرفه عن مؤسس أى مذهب آخر تقريباً ، برغم أن الأساطير حول مولده ، نشأته وأحاديثه مع الإله ، أساطير كثيرة.والعلماء المحدثون ، وهم لا يقلون حماسة عن زملائهم القدامى ، فضلاً عن المؤرخين ، مختلفون بالمثل حول تاريخ مولده . وأقدم تاريخ ذُكر هو سنة ٦٠٠٠ ق .م . ولسنا فى حاجة لأن نفترض لبرهة أنه عاش فى وقت مبكر مثل هذا الوقت . والتبشير بإنجيل يسبق أقدم ملوك عُرفوا فى مصر بثلاثة آلاف سنة ، فى الوقت الذى لم تكن غالبية العالم فيه تخطت العصر البرونزى ، قد يكون تبشيراً بنوع من الفراغ التاريخى (وليس هناك من مبرر يستوجب أن يعيش الحكماء فى وقت أكثر تبكيرا ، بل إنه أمر بعيد الاحتمال أن تكون لدينا الرغبة فى معرفة ماقالوه) . وقد تمسك بيروسوس Berosus المؤرخ البابلى الذى عاش فى القرن الرابع ق.م . بالرأى القائل بأن « زارادشت » قد ولد حوالى سنة ٦٠٠٠ ق .م ، ولو أننا لسنا على يقين تام على الإطلاق بالتواريخ التى ذكرها المؤرخون الأولون ، حتى هيرودت العظيم ، إذ على أى أساس كانوا يحسبون الزمن . ربما كانت هذه التواريخ صحيحة حتى بالنسبة لعلماء فى الرياضيات ، علماء أصليين ومجتهدين مثل العلماء البابليين . ويميل العلماء اليوم إلى الاعتقاد

---

(١) إنجيل متى ، الأصحاح الثانى ، آية ١ (المترجم) .

بأن « زارادشت » لم يولد قبل سنة ٦٦٠ ق .م . وهو تاريخ يقربه بضع سنوات من ميلاد بعض أعظم مفكرى العالم .

وفى الوقت الذى نجد فيه أساليب تحقيق أحداث معينة فى حيوات شخصيات مثل « أخناتون » و« إبراهيم عليه السلام » و« بوذا » و« المسيح » ، فإننا لا ننعم بمثل هذه التيسيرات فى حالة « زارادشت » ، إذ ليست هناك أحداث معروفة أو مصدقة ، للتحقق منها ، ذلك أن حياة « زارادشت » متخفية فى نسيج أسطورة خيالية جداً وغير معقولة جداً فى نظر عقول الغربيين ، حتى أنه ليبدو لأول وهلة أنه لا ينتمى إلى طراز الكائنات البشرية بل إلى طراز الأبطال الأسطوريين . ولكننا يجب ألا نتسرع فى استدلالاتنا ، فلنتمعن أولاً فى القصص العجيبة المرتبطة بمولده ، ومثل هذه القصص تبدو بلا تغيير أنها تربط نفسها بالزعماء الدينيين ، وأيضاً بمن يتطلع إليهم بشىء يكاد يشبه الرهبة الدينية – مثل « أفلاطون » لأن العالم يأبى أن يسمح لرجال ذوى شخصيات بارزة أن يولدوا بنفس الطريقة التى ولدت بها الكائنات البشرية العادية . هذه الأساطير لا تبرهن على أن إنساناً ما لم يكن له وجود ولكنها فى الوقت الذى تبرهن فيه بكل تأكيد على عكس ذلك ، فإن وجودها وبقاءها قد يكونان تعليلاً كما قلنا ، لوجود بعض شخصيات بارزة للثناء عليها . والرواية الشفوية ليست بالضرورة أقل سنداً من التسجيل المدون . واليوم ، مع اعتمادنا على الوثائق المدونة ، نقلل من قدر قوة الاتصال عن طريق الكلمة المنقولة بالفم ، وهو الأسلوب الذى ربما خدم البشرية أكثر من الكتبة ، بألف مرة . ويمكننا أن ندعى ، ولنا عذرنا ، أنه كلما كان هناك دخان أسطورى فلا بد أن تكون هناك شرارة على الأقل من نار حقيقية .

واسم « زارادشت(Zoroaster (Zoroastres »هو الترجمة الإغريقية لـ« زاراثوسترا Zarathustra»الذى ضمنه نيتشه Nietzsche فى مسرحيته الشعرية المشهورة : «كذلك قال زاراثوسترا Also Sprach Zarathustra» . وقد ولد « زارادشت » فى بلاد فارس ، ومن العسير تماماً أن نستوضح من « النصوص البهلوية Pahlavi Texts» التفاصيل الصحيحة لمولده ، نظراً لأن الحديث عادة مايسير على شاكلة نوع من الحديث المقدس . إننا نستخلص أن بعض رؤساء الملائكة « تجمّعوا فوق جذع نبات الهوم Hom (أو الهاووما Haoma) وهو نبات فى ارتفاع قامة الإنسان ، رائع فى لونه ، ممتلئ بالعصارة وهو طازج » ، وهو النبات الذى أختار ملاك « زارادشت » الحارس الولوج فيه . وبعد ذلك اقتيدت إلى شجرة النبات

المذكور ست بقرات بيضاء ، اثنتان منها ، برغم أنهما كانتا بكرا ، صارتا حلوبتين ، إذ أكلت هاتان البقرتان من نبات « الهاووما » ، وبذا « انتقلت طبيعة » زاراثوسترا « من ذلك النبات إلى هاتين البقرتين واختلطت بلبن البقر . » ، وبعد ذلك أغرى كاهن يدعى « بوروشاسبو Porushaspo » فتاة من أصل نبيل تدعى « داكدوب Dukdaub » لتحلب البقر ، وفى أثناء ذلك سحق « بوروشاسبو » نبات « الهاووما » ومزجه بلبن البقر ، وشرب هو والفتاة مسحوق نبات الهوم ممزوجاً باللبن حتى آخر قطرة » ، عندئذ امتزجا معاً وأنبأ « أهورامازدا Ahura Mazda » بذلك ، وهنا حدث اتحاد المجد ، إذ اتحد الروح الحارس والطبيعة الجسدية لزاراثوسترا فى صورة صبى ذكر ، ولكن بالرغم من ذلك ، فقد بذلت الأرواح الشريرة كل جهدها لتعوّق الحمل الطبيعى للطفل فى رحم أمه ، ولكنها (أى الأم) تضرعت إلى « أهورا مازدا » فصارت فى أحسن حال . وفى اليوم الذى ولد فيه « زاراثوسترا » غمر قرية « بوروشاسبو » نوع من الضياء المقدس ، واندلعت النار فى كل فجوة ، بيد أن أعظم معجزة له هو أنه ماكاد يولد حتى انخرط فى الضحك ، فإذا بالقابلات السبع اللائى جلسن حوله يتملكهن الفزع ، وقالت هؤلاء النسوة الفزعات : « ماهذا ، هل سببه العظمة أم السخرية ، ما هو ذلك الأمر الذى جعل الصبى يضحك على الفور عند ولادته ، مثلما يفعل شخص له قدرة ويكون مرد سروره إلى نشاطه ؟ » ولكن بوروشاسبو أجاب بفخر : « لفوا هذا الرجل الصبى فى ملابس صنعت من وبر الغنم الناعم . لقد كان مولده يرجع إليك ، يرجع إلى فضيلتك، أنت « يا « داكدوب » . لقد استبان بوضوح قدوم المجد وحلول الضياء على هذا الفتى عندما ضحك على الفور عند ولادته . » .

ولم تكن الأحداث التى أعقبت ميلاد « زارادشت Zoroaster » تعد شيئاً بالقياس إلى المحن والمغامرات ألتى أحدقت بطفولته . لقد حاولت الشياطين والأرواح الشريرة ، بكافة الوسائل أن تحطمه ، لقد حاولت أن تخنقه بأن لجأت إلى مربية لتتولى هذه المهمة نيابة عنهم ، بأن ترميه تحت خيول راكضة ، أو تحرقه حتى الموت بأن تضعه على كوم من حطب محترق ، أو بأن تتركه للذئاب لتمسك به وتلتهمه . وفى كل حالة كان ينقذ دون أن يصاب بأذى . وفى الحالة الأخيرة كان مرد إنقاذه إلى حقيقة أن « فوهيومانو Vohumano » و « سروش Srosh » الورعين ، جاءا بشاة كثيف وبرها وممتلئ ضرعها باللبن ، جاءا بها إلى الحظيرة فدرّت لبناً « لـ « زاراثوسترا » فى جرعات سهل هضمها حتى بزغ ضوء النهار .

وعندما كان طفلاً صغيراً جداً ، قيل عنه بالمثل ، إنه كان « يطيل التطلع وهو ينظر إلى أعلى وإلى أسفل وفى مختلف الجوانب حوله . »[٢] ولما كان يسأل عما كان يفعله ، كان يجيب بأنه كان يرى رؤى المباركين يصعدون إلى السماء والأشرار وهو يهبطون إلى الجحيم ، وقد تنبأ فى الوقت نفسه بانتشار إنجيل جديد فى بقاع الأرض .

الرسالة المقدسة :

وعلى شاكلة « يسوع Jesus » ، بدأ « زارادشت » رسالته فى سن الثلاثين تقريباً . لقد استهلت هذه الرسالة بنوع من الفحص الروحى قامت به الروح الطيبة « فوهيومانو Vohumano» . ولما تحدى الناس « زارادشت » يوماً ما متسائلين : « ما أول شىء يثير همه ، وعن أى شىء كان أول سعى له ، وماذا كان اتجاه رغبته » أجاب الشاب » : « إننى أعتبر أكبر همى الصلاح ، وأول مسعاى الصلاح وما تتجه إليه رغبتى الصلاح » . ولما سمح له فى الوقت المناسب بمصاحبة الأرواح ، كان فى استطاعة « زارادشت » أن يوجه أسئلة إلى « أهورا مازدا » نفسه ، فلقد تساءل : « فى عالم التجسيد ، ماهو الشىء الأول فى الكمال ، وأيها الثانى وأيها الثالث ؟ » فرد عليه « أهورا مازدا » قائلاً : « إن أول كمال هو الأفكار السديدة ، وثانيها الكلمات الطيبة وثالثها الأعمال الصالحة » .

فى بدء رسالته ، يبدو أن « زارادشت » قد عاش حياة الناسك . وعلى شاكلة « يوحنا المعمدانى » نزح إلى البرية ، وعاش على لاشىء ، اللهم إلا على الجبن والجذور ، ثم جاء الإغراء ، ومثلما قام الشيطان بالتغرير بالمسيح ، قامت الشيطانة « سيندارماد Spendarmad» بالتغرير بـ « زارادشت » ولم يتم اللقاء فى البرية بل بين أشخاص عاديين قرر « زارادشت » أن يدرس عاداتهم : « لقد اتجه زاراثوسترا إلى العالم الذى يعيش فيه ، عالم الصداقة ، مستهدفاً أن يراقب تماماً ذلك الطريق المعبد للوجود التجسيدى . ثم تقدمت الشيطانة – امرأة ذات جسد ذهبى ، ناهدة الصدر . لقد طلبت صحبته كما طلبت أن يخاطبها وأن يعاونها . » ولما كان على علم بأن مفاتنها خداعة تماماً ، طالبها بأن تدير ظهرها ، ولكنها ردت عليه قائلة : « يازاراثوسترا الاسبيتامى[٣] ، حيثما نكن ، تكن النساء منا جميلات من

---

(٢) لقد قيل نفس الشىء عن « بوذا Buddha» الصغير عند ولادته .

(٣) Zarathustra of Spitmas

الأمام ، قبيحات بصورة مخيفة من الخلف ، فلا تطالبنى بأن أدير ظهرى . » ولكنه أصر ، وبعد أن عارضت للمرة الثالثة ، وافقت على أن تدير ظهرها ، عندئذ خرجت منها سلالة كريهة من الثعابين والضفادع البرية والسحالى وأم الأربع والأربعين والضفادع البحرية . على أن المحنة الحقيقية جاءت فيما بعد فى صورة هجمات شيطانية عليه ، من بينها كان إيلاج رصاص مصهور فى معدته ، ولكن لم يفلح شىء فى زعزعة إيمانه فى عدالة الإله الذى تمتع بصحبته ، أعنى « أهورا مازدا » . وأخيراً ، كمكافأة له على تعبده الرواق ، أهداه « أهورا مازدا » شخصيا بكتاب الحكمة السماوية الذى سمى فيما بعد باسم « أفيستا Avesta » ، وكان هذا هو الإنجيل الذى كان يحلم به وهو صبى . وبذا صار للمبعوث الآن إنجيله .

وبرغم أن تبشيره قد لقى فى بادئ الأمر أذناً صماء – لأن الفرس كان لديهم بالفعل آلهتهم وطقوسهم الطبيعية – إلا أن « زارادشت » قد بدأ بالتدريج فى اجتذاب مهتدين ، وعندما قرر فى النهاية أمير فارسى يدعى « فيشتاسبا Vishtaspa » أو « هيستاسبس Hystaspes » أن يعتنق العقيدة الجديدة ، بدأت حركة تحول دينية قوية ، لأن هذا الأمير أعلن على الفور عن نيته فى نشر العقيدة الزارادشتية فى أرجاء مملكته ، ولكن خليفة قمبيز Cambyses المغتصب ، وكان يعتقد فى آلهة الماجيين القدامى Old Magiangods ، سعى لاستئصال شأفة الديانة الزارادشتية ، ولكن باعتلاء داريوس الأول Darius I العرش فى سنة ٥٢١ ق .م . أعلنت العقيدة الزارادشتية ديانة رسمية للفرس . ويعتقد بعض المؤرخين أن الأمير « هيستاسبس » الذى كان أول من صادق « زارادشت » لم يكن إلا والد داريوس . وإذا صح هذا القول ، فإن هذا ينهض دليلاً على أن « زارادشت » قد ولد فى أقدم تاريخ عزى إليه .

وطبقاً لرواية ، تمت وفاة « زارادشت » ، التى كان سن المفروض أن تحدث فى الثامنة والسبعين من عمره ، بصورة مسرحية مثلما تمت ولادته ، وإن كانت قد تمت بصورة أسرع ، وكان شعاع من نور يحيط به ثم صعد إلى السماء .

مثل هذه الرواية المقتضبة عن حياة « زارادشت » ، برغم ما حولها من قصص رائعة التصوير ، قد لاتشد القارئ الغربى ، كما لوكان فيها إما إقناع بصورة خاصة أو كان فيها سمو عقلى فريد فى ذاته ، أما عن شخصية زارادشت فنحن لا نعلم عنها شيئاً ، وهى بلا شك : شخصية أكثر غموضاً من غموض شخصية كافة الزعماء الروحانيين الذين ستتاح الفرصة لدراسة حيواتهم . أما عن المعجزات المعزوة إليه ، أوكانت لها صلات بمختلف وجوه حياته ،

فكثيراً ماتكون أقرب إلى الغرابة والسخرية . وأيا كان تأثيرها على أناس عصره وعلى من عبدوه فيما بعد ، فهى تستهدف كثيراً تعظيم شأنه فى عيوننا بقدر ماتباعد بينه وبين المركز الأمامى الذى يحتله الرجال ذوو الرؤيا التى تفوق قدرة البشر. هذا هو أول انطباع لنا .

صحيح أنك إذا عرفت القدر اليسير عن إنسان ما ، أمكنك أن تصوره فى أية صورة تريدها ، وأيًّا كان جهلنا بـ « زارادشت » ، فإننا يمكن أن نكون على يقين من أنه كان شخصاً مختلفاً تمام الاختلاف عن الحكيم العبقرى ، الأستاذ الألمانى الذى يمضى عطلته ، والذى تصوّره «نيتشه». وفى الواقع ، فإن شخصية « زاراثوسترا » التى وردت فى المسرحية الشعرية التى سبقت الإشارة إليها ، ليست إلا مجرد ركيزة توضع عليها أنماط فلسفة « نيتشه » عمن يفوق البشر Superman لأنه مامن شخصية أخرى عظيمة من الشخصيات القديمة لم تكن خلوًّا تماماً من الزخارف التاريخية . وأملنا الوحيد ، برغم تواضعه ، فى الوصول إلى فهم لمغزى « زارادشت » هو أن نتأمله ونأخذ فى اعتبارنا خلفية عصره . ونحن ندرك إدراكاً يشوبه الغموض بأن هناك تغييراً كبيراً فى روح الحضارة التى كان ينتمى إليها . تغييراً يسير جنباً إلى جنب مع العمل التبشيرى لمعلم عظيم . وفحص التعليم الحديث يتطلب أن نتعرف قدر المستطاع على عقلية الإنسان . وقد تكون النتيجة وهماً ، ولكن أى تاريخ فيما وراء فترة معينة ليس وهماً ؟ هذا الخط من البحث قد يبدو أنه جدير بأن يتبع .

كانت آلهة الفرس السابقة لعصر « زارادشت » تحمل شبهاً كبيراً لتلك الآلهة الواردة بالكتب المقدسة الهندية Vedas . وفى الواقع ، لقد كان كثيراً ما ينادى العلماء الهنود بأن الأفستا Avesta [٤] تكاد تدين بكل تعاليمها الأساسية للفيداس بما فى ذلك اسمها . لقد كان البانثيون Pantheon أو مدفن عظماء الآلهة يضم إلهين عظيمين : ميثرى Mithra إله الشمس وأنيتا Anaita إله الأرض والخصوبة . وقد تأكدت أهمية عبادة الخصوبة أكثر من ذلك بعبادة هاووما Haoma الإله الثور ، الذى كان من المفروض أن دمه يهب الخلود لمن شربه ، لقد كان عشب « هاووما » ، كما سبق أن رأينا ، أول ماحلت به روح « زارادشت » فى رحلتها البعيدة نحو مولده . ولما كانت الهاوونا موجودة بصورة خاصة فى الجبال ، لذا كانت لها خصائص مخدرة ، وكانت عبادة الإله الثور تتمثل فى شرب عصير النبات باعتباره مماثلاً للدم الذى يهب

(٤) وهى الكتب الزرادشتية المقدسة (المترجم)

الحياة . ومن المحتمل أن يكون إله الهند « سوما Soma» مثل الهاوونا . ونجد أيضاً بين هؤلاء الناس القدامى آثاراً واضحة لعبادة السلف : ديانة ترك اختفاؤها فى الأزمنة المتحضرة فراغاً يملؤه مثل تلك الأمور البديلة المجردة مثل القومية ، العقيدة الوحيدة التى قدمها الغرب للشرق .

لقد ذكرنا أن الكتب الزارادشتية المقدسة التى بقيت ، أعنى « الأفستا » والنصوص البهلوية [٥] ، تصعب قراءتها على الدارس الغربى ، ولا شك أن السبب فى هذا هو أنه لايكاد يكون هناك شىء فى الأدب الغربى يمكن مقارنته بها . والواقع هو أن النصوص التى بقيت لا تعدو أن تكون أجزاء من مجموعة كبيرة جدًّا من الكتب المقدسة ، بعضها أبيد عندما دمر « الإسكندر الأكبر » القصر الملكى فى « برسبوليس Persepolis» ، فى حين أن أجزاء أخرى فقدت فى أثناء الفتوحات الإسلامية فى القرن السابع الميلادى . وتحمل الأفستا ، بما حوته من قصص وأناشيد وصلوات ، شبهاً معيناً بكتاب العهد القديم ، وما يبدو أنه ينقصها هو : موضوع مستمر وهى خاصية من أهم الخصائص الجديرة بالاعتبار ، على الأقل فيما يتصل « بأسفار موسى الخمسة Pentateuch » ، وبرغم ذلك ، فإنه إذا ما تكشفت مرة التكرارات والغموض والمصطلحات غير العادية للكتابات الزارادشتية ، فإنه لاتلبث أن تبدأ رسالة عامة فى الظهور ببطء ، وإذا بالقارئ الذى كان قد تقارب منها وقرر أنه قد أعياه أمرها ، إذا به يستسلم لسحرها . كما أن كلمة السحر لا تستخدم فى غير موضعها الصحيح . والأدب النثرى يؤثر على الخيال بقوة الرقية Incantation والبحث عن المنطق هو البحث عن شىء واضح أنه لم يقصد أن يكون له وجود بالمرة (أو على الأقل لا يتضح هذا فى الترجمة) اللهم إلا فى فقرات من الحكمة الشعرية ذات المغزى Epigrammatic Wisdom ، مثل تلك التى نراها مقترنة بالحكماء الصينيين . ومما يبعث على شدة الغرابة حقا ، أن القارئ الغربى قد يجد نسبيًّا مزيداً من الرضا والقناعة فى الشعر . والأناشيد الزارادشتية أو « الجاثاس Gathas» بمحاوراتها الأخلاقية والميتافيزيقية أحياناً ، تحوى قدراً طيباً أكثر من الجوهر عما تحتويه أناشيد الشمس لأخناتون ، والأناشيد الرائعة للـ « ريج – فيدا Rig-Veda » .

---

(٥) كتبت الأفستا باللغة الزندية Zend (ومن ثم تسمى زند – أفستا Zend-Avesta) أما النصوص فقد كتبت بلهجة ذات أصل هندوسى اشتقت منه اللغة الفارسية الحديثة .

مضمون العقيدة :

أى انطباع عام نستخلصه من هذه المقالات المتنوعة عن الصلاح والعدالة ومن هذه التقارير عن اللقاءات مع إله النور ، وهذه المعلومات عن خالق العالم وعن تكاثر الأجناس البشرية وأخيراً هذه التعبيرات عن المشاعر الجياشة فى الشعر المذهل ؟ إنه انطباع عن بهجة الحياة والطبيعة إيمان ليس له طابع مادى بقدر ماله من طابع حيوى ولكن يكتنفه إحساس بالرهبة والخوف من الشر وبمعنى آخر ، فإن عبادة الخصوبة القديمة مازالت تمارس ضغطها القوى الذى لا يمكن إنكاره ، مثلما استمرت عبادة « أوزيريس » تحتفظ بكيانها فى مصر جنباً إلى جنب مع عبادة « رع » . وفى بلد زراعى ، كان هذا أمراً طبيعيا بلاشك . « تعسة هى الأرض التى تُركت أمداً طويلاً غير مزروعة ولم يبذرها زارع ، وهى فى حاجة إلى فلاح صالح ، مثلها فى ذلك مثل امرأة جميلة المحيا ظلت عانساً أمداً طويلاً وهى فى حاجة إلى زوج صالح . »[٦] .

إن مايبدو أن « زارادشت » قد فعله هو : تنقية عبادة الخصوبة من مظاهرها الخشنة ، ولقد حاول « موسى » عليه السلام ، بالمثل ، أن يوقف ميل بنى إسرائيل الفطرى للاشتراك فى الطقوس المغالى فيها . ومن الروايات الواردة بالكتاب المقدس من الممكن أن نستنتج (برغم أن الاستدلال كان مثار نزاع حار) أن رفض « يهوه » السماح لموسى بدخول أرض الميعاد ربما كان مرده إلى فشله بصورة خاصة فى آخر مرة ، فى وقف هذه الغرائز المفسدة للآداب[٧] . ويُروى لنا أنه عند نفس عتبة دارهم الجديدة ، التى بمجرد رؤيتها لابد وأن يدرك الفرد العادى أن « يهوه » كان الإله الحقيقى ، دخلت أعداد غفيرة من الرجال فى علاقات غير شرعية مع نساء موآبMoab، اللائى نفترض أنهم طلبوا منهن التعاون فى هذا الإجراء الذى لم يكن فى حد ذاته إجراء لا أخلاقيًّا لطقس من طقوس الخصوبة . ولا شك أن « زارادشت » حاول أن يمنع أبناء وطنه من عبادة « الهاووما » لنفس السبب الذى جاهد « موسى » عليه السلام من

---

(٦) فيديداد Vendidad . فاراجارد ٣ . Faragard III

(٧) واضح أن الرفض كان لسبب إغفال واجب من الواجبات المقدسة انظر سفر التثنيةDeuteronomyالأصحاح ٣٢ آية : ٥١ وفيما يلى نصها : لأنكما (يقصد موسى وهارون) خنتانى فى وسط بنى إسرائيل عند ماء مريبة قادش فى برية صين إذ لم تقدسانى فى وسط بنى إسرائيل . (المترجم)

أجله ، وغالباً ما كان دون جدوى للحيلولة دون عبادة العجل الذهبي ، لا لشخصه ، أعني أنه صورة منحوتة أو مصهورة ، ولكن لما يرمز إليه ، أعني باعتباره ثوراً ، أوضحُ شعار للخصوبة ، ولنفس السبب ربما كان تأكيد « زارادشت » على شخصية « أهورامازدا » السامية مستمدا من اعتقاد كان يسلم به بالمثل كل من « إبراهيم » « وموسى » عليهما السلام احتراماً لـ « يهوه[٨] » أن مثل هذا السمو قد يجعله « منزهاً عن كل ما له علاقة بالجنس » لقد كان « أهورا مازدا » و« يهوه » ، وظلا ، مذكرين فقط لأسباب لغوية . كانا يعيشان في مستوى مختلف عن مستوى آلهة وآلهات البانثيون القديم ، الذي كانت تغزوه بالمثل آلهة الحيوانات وأشياه الحيوانات ، القابل جنسها للتبديل والتغيير.

ولعل واحداً من أطرف الفقرات في الـ « فينديداد Vendidad » (الفصل الثاني) ، هو ذلك الجزء من الأفستا الذي يشكل القانون الكوني للفرس المحدثين ، يحوي بياناً سلمه « أهورا مازدا » لـ « زارادشت » عن أول « إنسان مقدس » وكان اسمه « يما Yima »[٩] ، كان يما الوسيم راعياً ، تحدث معه « أهورا مازدا » قبل أن يكشف عن نفسه لزرارادشت ، وعندما دعا « أهورا مازدا » يما لكي يكون مبشراً وحاملاً لعقيدته « رفض الأخير » بحجة تعليمه البدائي ، فرد « أهورا مازدا » على ذلك قائلاً : « مادمت لاترضى أن تكون مبشراً وحاملاً لعقيدتي ، إذن فدع عالمي يزداد ويتكاثر ، ودع عالمي يكبر ، وافق إذن على أن تُنعش وتحكم وتشرف على عالمي » فوافق « يما » ، ووعد بأنه طوال حكمه للعالم لن تكون هناك « ريح باردة ولا حارة ، ولا مرض ولا موت » وكان صادقاً في قَسَمه . وبعد مضي ثلثمائة شتاء كانت « القطعان وأسراب الغنم ، مع الناس والكلاب والطيور والنيران الحمراء المتوهجة » في وفرة عظيمة حتى لم يعد في استطاعة الأرض أن تحملها جميعاً . وعندما وجه « أهورامازدا » نظر « يما » إلى هذه المحنة ، شرع الملك الشاب في الضغط على الأرض بخاتم ذهبي وثقبها بخنجر (شعار منصبه) وبذلك ازداد حجمها بمقدار الثلث ، بصورة معجزة ، وتكررت هذه العملية كل ثلثمائة سنة ، فكبر حجم الأرض تبعاً لذلك في كل مناسبة . ونحن نلاحظ هنا اهتماماً ، بل انشغال بال ، بالوفرة والزيادة الطبيعيتين سواء كان ذلك انعكاساً للتوسعات الأرضية لقبيلة من قبائل الرعاة وكادحي الأرض ، أو تصويراً ، في لغة مغالى فيها ، لظروف

---

(٨) قارن ذلك بما كتبه بيوبر Buber في كتاب « موسى Moses » ص ١٩٤ .

(٩) قارن ذلك بـ « ياما الهندوسي Hindu Yama » .

العالم قبل كارثة ما مماثلة لكارثة طوفان بابل .

ويعود الموضوع نفسه للظهور مرة أخرى فى الروايتين الزارادشتيين عن الطوفان نفسه ، فى أولاهما « يما » الراعى يعود للظهور مرة أخرى فى دور « نوح » أو « شاماش – نابشتيم » . كان سبب الطوفان فى هذه الحالة نتيجة ذوبان ثلوج جبل . يقول « أهورا مازدا » مخبراً « يما » أن الشتاءات المكروهة على وشك أن تحل على عالم المادة مما سيجعل ندف الثلج تتساقط كثيفة على أعلى قمم الجبال . . . قبل ذلك الشتاء ، ستمتلئ البلاد بوفرة من كلأ الماشية قبل أن تجتاحها المياه . ثم بعد ذوبان الثلج ، سيصبح يا« يما » أى مكان يشاهد فيه آثار أقدام الخروف ، أعجوبة العالم .. وبناء عليه ، سمح « أهورا مازدا » لـ« يما » أن يخطط لحديقة « طول كل جانب من جوانب مربعها كطول أرض سباق ، ويأتى إليها بنسل من الغنم والثيران والناس والكلاب والطيور ، كما يأتى بنيران حمراء متوهجة » . داخل هذا السياج أو الخليط (فارا Vara) ، الذى من المحتمل أن يكون قد رفع إلى مستوى معين ، تصل تعليمات إلى « يما » بأن يتولى تربية ورعاية الناس والحيوانات والنباتات بأسلوب معين بقصد التخلص من كل ماهو معيب ، فبالنسبة للناس أن لايكون هناك أحد أحدب ولا أحد له كرش ، ولن يكون هناك من هو ضعيف جنسيا ولا من هو مجنون ولا من هو لئيم ولا كاذب ، ولا مؤذ ولا حقود ، ولا واحد أسنانه متآكلة ، ولا أبرص ليحتجز ، ولا به بصمة واحدة من البصمات التى ختم بها « أنجرا مينيو Angra Mainyu » أجساد البشر . » كل هذا حدث تبعاً لذلك ، والحادثة التى جردناها هنا مما بها من تكرار ، تنتهى بملاحظة أن الناس فى « الفارا » ، التى أقامها « يما » ، يحيون أسعد حياة ، ماداموا يتبعون فى كل التفاصيل وصايا عقيدة « أهورا مازدا » كما فسرها « زاراثوسترا » . وعلى شاكلة كل فردوس دنيوى ، مع ذلك ، فإنه مقدر لها أن تواجه تدخلاً وتحطيماً من قوى الشر .

وبينما تعد القصة الأولى عن الطوفان ، ببساطة ، علة لبقاء الأجناس البشرية ، وتتيح فرصة لتحسن البشر ، نجد أن فى القصة الثانية من الـ« بنداهيس[١٠] Bundahis » ، تعطى فكرة عن أمور أكثر عمقاً . فهنا نجد أنه قد ورد بوضوح ذكر جوهر علم اللاهوت الزارادشتى الذى هو صراع على مستوى العالم بين قوى الخير والشر ، النور والظلمة ؛ « أهورامازدا »

(١٠) جزء متبق من الأفستا .

« وأهريمان Ahriman » الشيطان الوحيد . وبدلاً من كون الطوفان قد بعث به الله كجزاء وعقاب ، كما جاء فى كل من ملحمة « جيلجاميش » وفى « سفر التكوين » ، نجد أن الكارثة الزارادشتية قد خططتها بدقة قوى الظلمة للإطاحة بـ«أهورامازدا» ، ويشكل صراع الريح والماء فحسب خلفية لصراع ثنائى هائل بين « أهورا مازدا » وحلفائه من ناحية « وأهريمان » من ناحية أخرى ، ولم يكن إلا عن طريق ما وهب به « تيستار Tistar» إله النجوم من « قوة عشرة جياد قوية وعشرة جمال قوية ، وعشرة ثيران قوية ، وعشرة جبال وعشرة أنهر » إلا أن دبرت قوى الخير أن تكون لها السيادة بالفعل .

ولو انتقلنا الآن إلى الأساطير الزارادشتية التى تتناول أصل الجنس البشرى ، نلاحظ نفس هذا الصراع القائم فى الشبيه الزارادشتى لآدم وحواء المسميين باسم « ماشيا Mashya » و« ماشيوى Mashyoi » أو « ماترو Matro » و« ماترویاو Matroyao » وقد نلاحظ ونحن نمر مر الكرام أن الإنسان ، كما جاء فى « سفر التكوين » كان السادس فى ترتيب الخلق . وطبقاً لما جاء فى « داديستان – ى – دينيك Dadistan-i-Dinik » أُوجِد « أهورا مازدا » جوهر الإنسان من النور ، ولكن هذا المخلوق ظل لمدة ثلاثة آلاف سنة ، لايتكلم ولا يأكل ، وكان وجوده فقط لغرض التأمل فى « صدق العقيدة الكاملة والصحيحة ، والرغبة فى التمجيد الخالص للخالق » وكان الميلاد ، كما نعرفه ، نتيجة لتخطيط شرير من جانب « دائم خلف الوعود » ، ولكن لاعلم لنا كيف جرت هذه النكبة . إن كل مانعرفه هو أنه قد حل « موت ثقيل » بشخص « جايومارد Gayomard » الذى بوفاته نُقلت ، بمعاونة مَلَك من الملائكة ، الذرية التى ولد منها « ماشيا » و« ماشيوى » « أخ وأخت البشر» . والقصة تستكملها بعد ذلك « البونداهيس » ، فالأخ والأخت تسميا فيها « ماترو » و« ماترویاو » واتحدا فيزيائياً ، وتلاصق وسطاهما وتلاحما حتى لم يعد واضحاً أيهما الذكر وأيهما الأنثى . » .

أما عن هذا الفرد التوأم ، فقد أصدر « أهورا مازدا » تحذيراً رزيناً قال فيه : « أنتما إنسان ، أنتما سلالة نسب العالم» وعليه فقد « أوصاهما » باحترام قوانين عقيدته وأن يظلا نقيين فى أفكارهما وكلامهما وأفعالها ، وفوق كل شىء كان عليهما ألا يعبدا أى شيطان . ولفترة سار كل شىء على مايرام ، ونعما بمباهج الطبيعة ، وعبدا « أهورا مازدا » على أنه إله الخلق ، ثم قررت الشياطين أن تعمل « فدب الخلاف فى عقولها وفسدت عقولها فساداً تاماً » وإلى درجة

كبيرة ، حتى أنهما بدآ يعزوان الخلق لا إلى « أهورا مازدا » بل إلى الأرواح الشريرة ذاتها . ومن جراء هذا الشر حُكم على نفسيهما بعد ذلك بأن تستقرا فى الجحيم « حتى يوم البعث » ، وبالتدريج أثبتت شهواتهما الجسدية وجودها . لقد حلبا ماعزة بيضاء الشعرواضعيْن فيها تحت ضرتها وكانا يتلذذان من طعم لبنها ، وهما يعزوان ذلك إليها ولا يعزوان لذة الطعم إلى الخالق ، وبعد ذلك ذبحا شاة ، وباللهب على خشب شجر النبق Loteplum وشجر البقس Boxtree ، أشعلا النار وشويا الشاة . وفى هذه المناسبة ، لما صارا أكثر تفكراً فى الآلهة ، رمياً بثلاثة أحفان من اللحم إلى النار كنصيب للآلهة ، وبثلاثة أحفان إلى السماء كنصيب للملائكة ، وفى الوقت نفسه خصص نسر نصيباً لنفسه . وبعد ذلك اكتسبا مهارة فى نسج القماش وحياكة الملابس ، ثم حفرا حفرة فى الأرض واستخرجا حديداً صهراه وصنعا فأساً لقطع الأخشاب ، بل أقاما كوخاً خشبيًّا .

وبازدياد المهارة دب النزاع ، فنشب أول شجار بينهما ، ولما كانا مرتبطين أحدهما بالآخر ، لذا كانت نزاعاتهما عنيفة بصورة غير عادية . لقد أخذا يصفعان أحدهما الآخر ويخدش كل منهما وجنتى الآخر ويندف كل منهما شعر الآخر . كانت هذه فرصة الشياطين . لقد طالبا « ماشيا » و « ماشيوى » بأن يسلما نفسيهما تماماً إلى « أهريمان Ahriman » وبهذه الطريقة سيهدأ ، كما وعدوهما ، « شيطان الشر » عندهما .

ونتيجة لهذا الانصراف المستمر عن الإله ، مالبث أن صار الاثنان على وعى بالرغبات الحيوانية بصورة لايمكن احتمالها . لقد ظلت مثل هذه الغرائز راقدة لمدة خمسين سنة وصارت الآن مستبدة . ودخل الاثنان فى اتحاد ، وبعد تسعة أشهر ولد توأمان ، ولكن الأبوين التهاهما على الفور ، وهى عملية ربما استمرا عليها لو لم يتدخل « أهورا مازدا » ، وهكذا ولد الإنسان فى خطيئة وعاش بعد ذلك على معاناة مقدسة .

أما عن أن الرجل الأول والمرأة الأولى ربما كانا مخلوقاً واحداً أو أنهما مرتبطان ارتباطاً وثيقاً فهى فكرة ليست خاصة بالمذهب الزارادشتى وحده ، بل هى موجودة كما سنرى ، فى الـ « ريج – فيدا » التى يُصوَّر فيها « ياما Yama » و « يامى Yami » ابنا « فيفاسات Vivasat » على أنهما أخ وأخت توأمان . وعلى شاكلة ماجاء فى سفر التكوين ، حواء خلقها الله من ضلع آدم . وفى كتاب « الندوة Symposium » وضع « أفلاطون » على

لسان « أريستوفانيز Aristophanes » أسطورة تتناول أصل البشر من مخلوق له رأسان انشطر فيما بعد إلى نصفين : من هذا الانقسام فسّر عاطفة الحب ، التى هى رغبة أى مخلوق فى البحث عن المكمل الذى انفصل عنه . ولاشك أن هذا الوجه من الموضوع تافه ، ولكن ماهو أكثر أهمية هو حقيقة أن كل قصة ، باستثناء قصة « أريستو فانيز » (التى قصد بها أن تكون خيالية) ، تصف أصل الدافع الجنسى بأنه مقترن بالخطيئة ، أو بنوع من السقوط ، بل حتى مفهوم « زارادشت » كان مقترناً بالذنب : فالثنائى « بورو شاسبو » و « داكدوب » بدءا خجلين عندما حالت الأرواح الشريرة بينهما وبين احتضانهما لبعضهما البعض رغبة منهما فى إنجاب ابن لهما » . إذن ، فقد يكون من عدم الحكمة أن نفكر فى السبب فى أن مثل هذه الفكرة قد انتشرت انتشاراً واسعاً أو فى الكيفية التى صارت بها عميقة التأصل . وسنعود لهذا الموضوع بعد دراسة الأفكار المتعمقة لحكماء الهنود الذين كان انشغالهم بالخلق والميلاد يحتل أولوية فوق كل اهتمامات أخرى .

الخير والشر :

إن من التفاهة أن نلجأ إلى تفسير للسبب فى أن « أهورا مازدا » برغم سموه اسميًّا ، لابد وأن كان طوال كل الخلود موضوعاً لتحدى « أهريمان » . ولم يكن بالمذهب الزارادشتى أسطورة عن « إبليس Lucifer » ، برغم أن مايعادلهوهو الشيطان Satan ، لابد وأنه أثّر بكل تأكيد فى الفكر المسيحى . ونحن نلاحظ أن الشيطان يصور بصورة أكثر تكراراً فى الأسفار المتأخرة من العهد القديم ، فى حين أنه فى العهد الجديد هو شخصية معتمدة من شخصيات المسرحية . ولم يكن منافسو « يهوه » الأوائل مبعوثى الشيطان بل كانوا آلهة غيره فحسب وفى علم اللاهوت الزارادشتى نحاط علماً بأن « أهريمان » « فَضَّل العمل الجائر » .

ونجد فى « زاد – سبارام Zad-Sparam » رواية رمزية غامضة عن الخلاف المتأصل بين : « أهورا مازدا » و« أهريمان » ، ونحاط علماً فى كلمات تذكرنا بسفر التكوين القديم أنه فى بداية الزمن « كان النور فوق والظلمة تحت ، وبين هذين الاثنين فراغ مكشوف » وقد سكن « أهورا مازدا » مملكة النور كما سكن « أهريمان » مملكة الظلام . وفى الوقت الذى كان فيه « أهورا مازدا » على علم بوجود « أهريمان » وقدومه للصراع لم يكن « أهريمان » مع ذلك على

علم بمملكة النور التى فوق رأسة . وذات يوم ، فى أثناء تسكعه فى الظلام ، خرج « أهريمان » مصادفة من المناطق السفلية وإذا به « يرى شعاعاً من النور » ، ونظراً لاختلاف طبيعة ذلك الشعاع فى اعتقاده ، « جاهد أهريمان للوصول إليه » ، حتى يمكن أيضاً أن يدخل فى نطاق نفوذه المطلق : عند ذلك اقترب « أهورامازدا »من الحدود . وماحدث بعد ذلك لم يكن صراعاً كذلك الذى حدث بين « إله النجوم الهركيولى The Herculean Tistar» وبين قوى الظلمة ، ولكن طَرد « أهريمان » ، « بكلمات طاهرة » (قارن ذلك بأول لقاء لـ« زارادشت » مع « أهورامازدا ») . بها بطل « سحره . ويصوِّر « أهورامازدا » مرة أخرى فى « الفينديداد » وهو يفسر لزارادشت كيف أن شرور ومساوئ الحياة قد تأصلت . وهو يبدأ بالإشارة إلى أنه قد جعل كل بلد « حتى ولو لم يكن به أية مفاتن تذكر عزيزاً على أهله ، وإلا لاجتاح عالم الرجال بأسره منذ أمد طويل أرض الآريين Airyano Vaejo أو موطن الجنس الذى تناسل منه كل من الفرس والهنود[١١] . وبعد خلق أجمل البلدان هذه ، شرع « أنجرا مينيو Angra Mainyu » (وهو اسم آخر لـ « أهريمان ») يناقض ماخُلِق ، بخلق كل المظاهر المغايرة ، وتطول القائمة لتتضمن ستة عشر بلداً أو منطقة فى كل منها خَلَق « أنجرا مينيو » شروراً مثل : الثعابين والنمل والجراد والكبرياء والدموع والسحر والدفن[١٢] ، والكفر والظلم والولادة الشاذة وشدة الحرارة ، وفوق كل شىء الشتاء – وقد وصف الأخير فى كل ذكر له على أنه « الشيطان نفسه » (عمل الشيطان Daevas) .

مثل هذه القصص الرمزية واضح أنها ابتكرت لتقنع عقول البسطاء من الناس ، ومع ذلك فلسنا فى حاجة إلى الإقلال من شأنها . وقد لجأت كل الديانات إلى مثل هذه القصص الرمزية التى كان لها أعظم ميزة فى الحفاظ على العقيدة ثابتة . والعقائد الميتافيزيقية كعقيدة أرسطو ، لم يقصد بها الاستيعاب الشعبى . وتماماً مثلما كانت « العقيدة » القومية لمصر راسخة فى أذهان كل من الصغار وصغار العقول عن طريق قصص رمزية للفرعون الميت ومركبه الذهبى ، أو مغامرات « أوزوريس » ، فكذلك كان إثبات عقيدة زارادشت لأبسط فلاح أو

---

(١١) لاحَظَ هيرودوت أن الفرس كانوا ينظرون إلى الشعوب على أنها دونهم شأناً ، نظراً لبعدها عن فارس .

(١٢) وصف على أنه «خطيئة لافدية لها The sin for which there is no atonement» ، ويرفض الفرس المحدثون رفضاً باتاً أن يدفنوا موتاهم ، إذ يطرح الجسد الميت على ما يطلق عليه اسم «برج الصمت Tower of Silence» لتأكل الطير منه .

بدوى (وكانت إيران دائماً مستقرا للقبائل والعشائر) عن طريق قصص كفاح الغيلان وأذى الشيطان : عبارات يمكن أن يدخل تعليمها فى التداخل الطبيعى لخبرة كل يوم . وقد يكون هناك الكثير الذى يقال عن وجهة النظر المنادية بأن الحقائق اللاهوتية ، نظراً لأن بها ميلاً فطريًا لأن تتحول إلى تجريدات بعيدة ، من الأفضل أن تترجم فى صورة قصة رمزية عن أن نترجم فى أى مجال آخر . والتعبير عنها بالمرة هو تعبير عنها كأسطورة ، والأسطورة بمعنى آخر ، ليست عقيدة باطلة ، بل بالأحرى طريقها الخاص لتصبح صحيحة[١٣] .

ولقد أكدنا فى الحديث عن عقيدة « أخناتون » ضرورة أن تكون لكل عقيدة ، كمتمم لعلم لاهوتها ، نظام أخلاقى واضح تمام الوضوح ، ويمكن أن تعلِّم الناس فى مصطلحات عامة : ماهو خير وما هو شر ، ولكن لو أنك التزمت بولائهم لوجب عليك أن توضح لهم بصورة مطلقة ماهو صواب وما هو خطأ . وترى معظم العقائد أن من الضرورى إخفاء هذه الحكم الأخلاقية فى عبارات هى النواهى ، وكان الأمر كذلك فى بابل . ولو رجعنا إلى الوصايا العشر العبرية لوجدنا أن ثمانية من بنودها من النواهى والتعاليم الزرادشتية ، برغم ما تضمنته من النواهى والمتناقضات فى لاهوتيتها ، إلا أنها فى مجموعها إيجابية فى وصاياها . والمنهج الأخلاقى يمكن إيجازه بصورة أكثر وضوحاً فى « زاد – سبارام » ، وهو أحد النصوص البهلوية ، ويتألف من قسمين ، قسم يتناول « الميول والنزعات » فى حين يتناول القسم الآخر « التحذيرات والعظات » . والميول والنزعات الخمس التى توصفَ بأنها تسترعى اهتمام الكهنة بصورة خاصة ، تحدد قواعد السلوك الشعائرى والسلوك الصحيح فى العمل ، أما عن التحذيرات والعظات فمنها عشر يمكن أن يطبقها الجميع ، وأولها الحفاظ على ما يسمى بحسن السمعة حتى يمكن أن تفوز بالاحترام ليس فقط لنفسك بل أيضاً لأساتذتك أو من يرعاك ، وثانيها هو أن تتجنب ، لنفس الأسباب ، اكتساب أى عنصر من عناصر سوء السمعة ، وثالثها ، هو ألا تضرب أستاذك أو تضايقه بتكرار مانهاك عنه ، ورابعها أن تتقبل أحسن تعليمات أستاذك فى خضوع ، كما لو كانت قرضاً لا على أنها هدية[١٤] . وخامسها ، هو أن تلاحظ أن قانون عقاب المسىء ومكافأة الصالح مراعى فيه صالح التقدم ، وسادسها ، هو أن

---

(١٣) قارن ذلك بما كتبه شيلنج Schelling ليست الأسطورة بقائمة على فكرة،كما يفترض الأطفال الذين يربون تربية غير طبيعية،ولكنها هى نفسها نوع من التفكير يعطى مفهوماً عن العالم،ولكنه يعطيه فى تتابع للأحداث والأفعال وللمعاناة » .

(١٤) هناك حكم معينة من هذه الحكم غامضة ، ولقد حاولنا أن نعرض مانعتقد أنه المعنى الأساسى لها .

تحرص على أن تكون دارك كعبة لكل الأشخاص الصالحين المحبين للأنام ، وسابعها ، هو أن تعترف علانية بالخطايا التى ارتكبتها ، إذ بتخلصك مماهو شريبق على عقلك صافياً ، وثامنها ، وتشبه سابقتها ، وهى أن تتجنب كل الظروف التى تجعلك تتردى فى الخطايا ، وتاسعها ، هى أن تعمل أقصى مايمكن عمله لنشر العقيدة الحق ، وأن تساعد على استردادها لنفوذها لو تعرضت لنكسات ، وعاشرها وآخرها ، هو أن تقدم الاحترام اللائق لكافة أفراد الهيئة الكهنوتية .

من هذه القائمة التى تتناول التحذيرات والعظات ، من السهل أن نلاحظ مم تتكون واجبات الفرد جميعها ، وتتمثل فى أن يكون ورعاً نقيًّا ، مطيعاً لكل من معلمه وكاهنه وأن يكون قدوة للجميع . كما أنه لايقل عن ذلك واجب ، واجب الدعوة إلى الإنجيل[١٥] . وفى رواية عن يوم البعث وردت فى الـ « بنداهيس » : يُحذَّر المؤمن بأن من واجبه الخاص أن يراعى أن أصدقاءه الضالين يجب أن تتاح لهم كل فرصة للهداية ، فلو حدث مثلاً أن شخصاً شريراً شكا يوم الحساب من أن صديقه الصالح « لم يدله على الأعمال الصالحة التى مارسها هو نفسه » . فسيتلقى الصديق الصالح مايستحقه من عقاب ، وفضلاً عن هذا ، فإنه على الرغم من أنه يوم الآخرة «سيصبح الشرير واضحاً كوضوح خروف أبيض (هكذا) وسط خراف سود » . فلن يستطيع الصالح أن ينجو من الحزن . وتستمر الرواية فى سردها : « أنهم يتألمون ، كل من أفعاله الذاتية ، ويبكون : الصالح على الشرير والشرير على نفسه » ، لأنه برغم أن الأب قد يكون صالحاً فقد يكون الابن طالحاً وما إلى ذلك ، كما أن تجربة الجحيم ليست شيئاً يستهان به ، لأن الخوف من غالبية الأشياء الأخرى أكثر من الشىء نفسه ، ولكن الجحيم شىء أسوأ من الخوف منه» ويقال إنه عند البعث كل من اعتبروا صالحين سيكون لديهم إحساس السير دوماً فى لبن دافئ ، فى حين أن الأشرار سيكون لديهم إحساس السير فى معدن مصهور .

مثل هذا الورع التام يتضمن العبارة المنظمة للإله طبقاً للطقوس المقدسة ، وبمضى القرون صارت شعائر العقيدة الزارادشتية البسيطة معقدة تماماً كما صار توحيدها السامى متضمناً

---

(١٥) ومع ذلك فإنه من الغريب أن الفرس المحدثين Modern Parsees لا يقبلون أى مهتدين إلى عقيدتهم ، ولذلك فهم لا يهدون الناس لعقيدتهم .

مغريات على الشرك . والجدير بأن يُعبد وحده إله ، لأنه قد وُهب كل كمال . وفى الوقت المناسب تصبح هذه الحضارة الحميدة منفصلة وتلقى احتراماً خاصا . وإلاله ليس له مكان ، ولذلك فهو فى كل مكان ، وموجود فى كل شىء وكل شىء ينبئ عن وجود الإله ولذلك يصبح إلهاً . ومن ثم ، يُفسح التوحيد الأصلى المجال لشرك عنيف ، ويعود الشيطان Daevas بعد طرده فى صورة أرواح شريرة Fravashis .

أما عن أن هدف زارادشت الرئيسى كان بالأحرى تنقية العقيدة التقليدية لأبناء وطنه لا الإطاحة بها ، فتشير إليه عدة أصول ، فقد كان « مثرى » إله الشمس ، وهو أبعد من أن يطرد ، يُعبد على أنه نار سماوية ، كما كان يُمتدح فى معظم الأناشيد الزارادشتية . و « هاووما » الثور ربما أُقصى عن البانثيون ولكن النبات الذى تُعبد فيه قوته يلعب دوره فى خلق النبى[١٦] .

ولم يقم الأتباع الأولون للعقيدة الجديدة ببناء معابد أو إقامة تماثيل ، ولكنهم أقاموا هياكل كانت توقد فيها النيران تكريماً لـ « أهورامازدا » . والنار ، التى كثيراً مايشار إليها فى الأدب الزارادشتى مالبثت أن عُبدت على أنها إله ، كما حدث للشمس نفسها ، حتى كادت كل هذه الآلهة أن « تحتل مكانة أهورامازدا[١٧] ». وقد صارت عادة التمسك بنار دائمة فى البيت جزءاً من المحافظة اليومية على الشعائر الدينية عند الإنسان : لأن المدفأة كانت مقدسة بصورة خاصة فى عقيدة مجدَّت الحياة اليومية ، وكان قوس قزح ، ذلك البديل للشمس ينظر إليه الزارادشتيون ، عرضاً ، بنفس الطريقة التى كان ينظر إليه بها إلى حد كبير فى سفر التكوين ، على أنه « إشارة علوية من كائنات روحية إلى كائنات أرضية » .

وتماماً مثلما لم يكن مسموحاً لأتباع زارادشت بأن تكون لهم معابد ، فكذلك كان محظوراً عليهم أن تكون لهم أصنام . ولقد مارست عبادة الأصنام والاعتقاد فى الشياطين شيئاً من النفوذ على عامة الشعب ويمكن أن نميزه من العقيدة المازدياسنانية Mazdayasnian المحكمة التى لها وجود فى الياسنا Yasna (قداس الكهنة الزارادشتيين) . وهنا نجد عبارة طويلة عن الإقلاع عن شىء واتجاها بصورة خاصة إلى التخلص من نفوذ الشياطين : « من بعيد ، من بعيد ، أنا أنكر الشياطين وكل من تتملكهم : العرافين ، وكل من يصدقون أساليبهم وكل

---

(١٦) كان العصير يشرب أيضاً كشعيرة دينية حتى بعد عهد زارادشت .

(١٧) ومع ذلك فليس صحيحاً أن يوصف الفرس المحدثون بأنهم عبدة « النار » ، فإشعال النيران ليس إلا مجرد طقس من الطقوس الدينية .

كائن حى موجود ينهج نهجهم . إننى أنكر أساليبهم ، كما أنكر كلماتهم وأفعالهم ، وذريتهم التى تفشى خطيئتهم ، إننى أنكر رعايتهم كما أنكر رئاستهم » . إن مثل هذا التبرؤ من جانب أعداء « أجلّ وأحسن وأجمل عقيدة موجودة » يمتد مداه عن طريق من يرددونه ، ولكن هدفه واضح ، خاصة إذا كان ترديده على لسان كاهن من الكهنة . ويقال أحياناً بأن « زارادشت » فى توكيد سمو « أهورامازدا » ، كان يقصد إنكار حقيقة الشياطين . وأيًّا كان مايؤمن به هو شخصيا ، فواضح أن أتباعه كانوا يأبون التخلى عن مثل هذه الأفكار العزيزة . وتقدم النصوص البهلوية القوى المجسدة للشر فى وجه من وجوه حياة « زارادشت » ، كما تفعل مع الملائكة الطيبين الموالين له .

تطوير العقيدة :

إن فكرة ما عن خاصية العقيدة التى بشّر بها « زارادشت » يمكن الوصول إليها إذا أخذنا فى اعتبارنا صروف تاريخها . وستنتشر أية ديانة أيًّا كانت ، وفى الواقع أية عقيدة سياسية ، لفترة ، لو كان فرضها بقرار حاكم صاحب سلطة . ومن هذه الوجهة ، يلاحظ أن مرسوم « داريوس الأول » يشابه المرسوم الذى أصدره « أخناتون » . صارت الديانة قانونا ، وصار الإلحاد مساوياً للخيانة . وإن المرء ليشتبه فى أن عقيدة « زارادشت » كما بشر بها فى الأصل ، قد فرضت ضغوطاً كثيرة جدًّا وفجائية جدًّا على شعب لم يكن قد تعلم بعد التعليم الذى يصل به إلى مستوى الوحدانية الخالصة[١٨] . لقد عادت الآلهة تسعى مرة أخرى ، وكانت الشياطين بالفعل هناك . وبالتدريج استرد الكهنة السابقون للعقيدة الزاراشتية ، كهنة ماجى Magi الذين أُقصوا من الحظوة إقصاء عنيفاً كما حدث لكهنة آمون ، استردوا نفوذهم . أما « مثرى » ، فكما سبق أن رأينا ، ازداد بهاؤه ، وفى الواقع لقد صارت عبارة « مثرى » فى الوقت المناسب ، عبارة شعبية جدًّا بين الفرق العسكرية والرومانية الغازية حتى انتشرت فى أقطار دون مستوى فارس ، من جراء بعدها عن فارس ، كبريطانيا . وبالرغم مما حاوله ملوك الدولة الساسانية فى الفرس (٢٢٦ – ٦١٥ ب . م .) لإرجاع العقيدة الزارادشتية لتكون دين الدولة ، إلا أن الدافع لهذه العقيدة التى كانت يوماً ما نقية ، صار منعدما ، وقد استمرت مجموعات صغيرة فى التمسك بالعبارة القديمة ، ولكن اليوم ، باستثناء مجموعة ضئيلة

(١٨) لم يكن هناك تطوير لاحق للاهوتية العقيدة الزرادشتية .

من الأتباع فى فارس ، انقرضت العقيدة الزارادشتية كعقيدة فى البلد الذى نشأت فيه ؛ وهى مع ذلك باقية كعقيدة للسكان الفرس التابعين لإشراف بومباى ؛ وقد بذل هؤلاء القوم جهودهم للحفاظ على العقيدة خالصة ، وقد يُعطى تنورهم الراهن فكرة عن تأثير شخصية مؤسس المذهب على معاصريه (١٩) .

على أن العقيدة الزارادشتية قد تلقت ضربة قاضية على يد الإسلام ، وتخرج العقيدة من جهادها عقيدة ، أقل صموداً للحرب وأضعف دعاية لها ، ومع ذلك ، فلعله من الخطأ افتراض أن عقيدة « زارادشت » لم تترك آثارا باقية سواء فى الفرس أو فى أى مكان آخر . وقد سبق أن وجهنا الأنظار إلى إمكان تأثير الزارادشتية فيما يتصل بالروح الشريرة المجسدة على العهد القديم . وبالمثل ، فلربما كان المفهوم الزارادشتى عن الحياة بعد الموت له تأثير كبير على نفس الاتجاه ، لأننا نجد القليل أو لا شىء ، من هذه الفكرة فى الجزء المتقدم من الكتاب المقدس . والأفكار الخاصة بالخلق فى سبعة أيام والفردوس الأرضى ، وحرمان الإنسان مما كان فيه من نعم ، وكارثة « ما قبل التاريخ » التى هددت بقاء الجنس البشرى ، معروفة لأكثر العقائد عن اليهودية والمسيحية والزارادشتية ، بالرغم مما نجده فى الأخيرة من بعض تعديلات طريفة ومبتكرة . وإذا لم تكن هناك أية علة لافتراض أن العادات الدينية الزارادشتية أثرت تأثيراً مباشراً على تلك العادات الدينية عند العبرانيين ، فإنه يمكننا أن نفترض ، ونحن على حق ، أن مثل هذه العادات كانت من بين تلك العادات التى أمر العبرانيون ، وكانوا يميلون دائماً إلى المداعبات الدينية (٢٠) ، بألا يفعلوا شيئاً حيالها . وفى الواقع ، لو لم تكن فى الفقرة التالية من سفر « حزقيال » إشارة إلى ممارسة أتباع زارادشت « لعبادة النار » ، لكان من العسير إدراك فكرة الرؤيا التى وُصفت وصفا دقيقاً : وأنا جالس فى بيتى . . أن يد السيد الرب وقعت علىّ هناك ، فنظرت وإذا شِبْهٌ كمنظر نار من منظر حَقْوِيه إلى تحت نار ، ومن حَقْوِيه إلى فوق كمنظر لمعان كشبه النحاس اللامع ومدَّ شبه يد وأخذنى بناصية رأسى . ورفعنى روح بين الأرض والسماء وأتى بى فى رؤى الله إلى أورشليم ، إلى مدخل الباب الداخلى المتجه نحو

---

(١٩) خلال العشر سنوات الأخيرة ، ظهرت عقيدة مازديا سنانية جديدة فى بومباى نادت بها مليونيرة أمريكية ، ويبدو أن المؤمنين بها يستغرقون فى تمرينات تنفس خاصة ، كما يستغرقون أيضاً فى الطهى .

(٢٠) حتى فى افتراض متأخر ، كافتراض « يشوع » عن الرئاسة ، كان لابد من سؤال بنى اسرائيل ليقرروا ما إذا كانوا يرغبون فى عبادة « يهوه » أو غيره من الآلهة .

الشمال [٢١] . . « فجاء بى إلى داربيت الرب الداخلية وإذا عند باب هيكل الرب ، بين الرواق والمذبح نحو خمسة وعشرين رجلا ، ظهورهم نحو هيكل الرب ووجوههم نحو الشرق وهم ساجدون للشمس نحو الشرق ، وقال لى : أرأيت يا ابن آدم ، أقليل لبيت يهوذا عمل الرجاسات التى عملوها هنا »[٢٢] . . ولو عاش « زارادشت » حتى نهاية القرن السابع ق . م لكان فى إمكاننا أن نتصور تماماً أن الممارسة الحماسية لعقيدته فى الأقطار المتاخمة للفرس ، مثل بلاد الرافدين ، ربما كانت مألوفة فى زمن حزقيال (حوالى سنة ٥٨٠ ق . م .)

صورة يمكن تصديقها :

لتقدير الطبيعة الكاملة لعقيدة زارادشت بقصد مقارنتها بغيرها من العقائد القليلة التى حققت على الأقل نجاحاً بين الناس يمكن أن يوضع موضع المقارنة ، يتطلب الأمر منا دراسة طويلة لما بقى من الكتب المقدسة ومعرفة خلفية تأليفها . وقد قدمنا فى هذا الفصل ما يزيد قليلاً على وصف مختصر لأساسيات العقيدة . وحتى هذا ، فإن الانطباع الذى بدأنا به يمكن أن يكون قد مر تماماً بقدر من التعديل . وتبدو صورة بعيدة عن مثار الريبة فى مجموعها وهى تشق طريقها خلال الظلال ، وتتداعى العناصر الغريبة الشكل وتصبح غير ضرورية وتافهة . وكانت العقيدة التى يُبَشِّرلها فى حماس ، وكانت تمارس فى نشاط لفترة ، ثم تركت لتتردى إلى إهمال نسبى ، كانت عقيدة فرد لابد وأنه قد أوتى بكل تأكيد خبرة مماثلة لخبرة الأنبياء . ونظرية القرن التاسع عشر عن أهمية الفرد The Theory of the importance of the individual التى لخصها « أمرسون Emerson » ببراعة فى قوله إن « التاريخ هو الظلال الممتدة لعظماء الرجال » ، قد يكون مبالغاً فيها ، ولكن هناك نقطة بعدها لا يمكن إغفالها دون حدوث خطأ مضاد ، وإن من ينكرون احتمال ما قد أُطلق عليه لسوء الحظ « خبرة دينية » (كما لوكان فى الإمكان التسليم بعقيدة دينية دون اختبارها) ليسوا فى حاجة إلى افتراض أن ما لم يحدث لهم على الإطلاق لا يمكن أن يحدث لأناس غيرهم فى أى ظرف من الظروف . وفى أصل عبادة إله النور نحس بواحد من أولئك الزعماء العظام الروحانيين ، سبق أن تحدثنا عنه : سيد التبسيط ، مثل كل الزعماء ، الذى صوَّر النضال فى نفس الفرد على أنه يعكس فى صورة

---

(٢١) . حزقيال ، الأصحاح الثامن : ١ – ٤ (المترجم) .

(٢٢) حزقيال ، الأصحاح الثامن : ١٦ ، ١٧ (المترجم) .

مصغرة in paro نضالاً كونيًّا عظيماً بين الإله والشيطان ، الذى كان أساساً محبًّا للطبيعة لا بالمعنى التمثيلى السطحى الذى يروجه الرومانتيكيون ، بل بمعنى أعمق يرى فى القرائن الأساسية للجسم شيئاً مقدساً ، ما دام أن الله قد غرسها فيه واستحالت إلى شر فقط ، لأن قوى الظلام تسعى إلى امتلاك ما ينتمى إلى عالم النور : الذين أحسوا ، نتيجة لذلك ، برقة خاصة تجاه الصغار والمخصبين وحديثى الولادة[٢٣] ، ولا يحسون بذلك على الإطلاق بالنسبة لخلق الحيوان[٢٤] » الذين رأوا فى الأسرة أثمن ضمان لوحدة المجتمع ، والذين أدركوا استحالة وحدة الأسرة بدون احترام آلهة العائلة واحترام أرواح الأجداد « فرافاشيس Fravashis » والذين صوروا بوضوح زمناً برغم بعده بثلاثة آلاف سنة ، ونتيجة لعمل أنبياء آخرين ، عندما كان الواجب يقتضى تحطيم قوى الشر تماماً . وكان من واجب الجنس البشرى أن يسترد الفردوس القديم . ويبدو أن قلة من الناس وقلة من الزعماء الدينيين ، قد تخلصوا تماماً مما هو ضار بالصحة .

وأما عن المتصوفين المسيحيين فلربما لم يستطع أحد فيما عدا القديس فرانسيس St. Francis وتوماس تراهيرن Thomas Traherne أن يدانى « زارادشت » فى تكريمه للخلق : إن من يتلو مدح القداسة . فى كمال العقيدة ، وبقلب ورع يمتدحنى أنا « أهورامازدا » فهو يمتدح الماء ، ويمتدح الماشية ، ويمتدح النباتات ويمتدح كل الأشياء الطيبة التى صنعها « مازدا » ، كل الأشياء التى تناسلت من العناصر الطيبة (شقافة ياست Yast) . وأخيراً نكتشف فى عقيدة زارادشت عنصراً حُجب نوره ، ولكن لم يخلفه على الإطلاق توكيد على الشهرة الشخصية وطاعة المسئولين ، أعنى الاهتمام بصورة خاصة بالخبرة الداخلية الواضحة قبل كل شىء فى الأولوية المعطاة « للأفكار الطيبة » و « النزعة الصادقة »[٢٥] : فلا يوجد دليل أكثر توكيداً على التنور الروحى ، كما أن هذا الانشغال بالحالة الداخلية للقداسة ليس مجرد إغراء بالاطمئنان . وتتطلب العقيدة الحق بذل جهد مستمر سواء

---

(٢٣) من واجب المؤمن أن يهتم بأمر كل حيوان سواء كانت تمشى على قدمين : أو على أربع ، سواء كانت امرأة أم كلبة (فيديداد) .

(٢٤) كان هذا صحيحاً بصورة خاصة بالنسبة للماشية والكلاب ، قارن ذلك بما جاء فى فيديداد : من يقتل الكلب يقتل نفسه شخصيا لتسعة أجيال .

(٢٥) انظر بصورة خاصة « الصلاة للهداية Prayer for Guidance» إذ جاء فيه ما يلى : « أخبرنا كيف يمكن أن تأتى إلينا بنزعة صادقة » .

فى صورة النظام الذاتى وفى صورة العمل الاجتماعى وفوق كل شىء لابد أن تكون هناك نهاية للتعصب الدينى ، وهو أوضح خطر تتعرض له أية عقيدة رسمية ، وهناك فقرات قليلة فى الكتب المقدسة لعقائد العالم كانت فى آن واحد مبجلة جداً ومستوحاة كهذه من النشيد المعروف باسم « فارفاردين ياست Farvardin Yast » : نحن نعبد هذه الأرض ، نعبد تلك السموات نعبد تلك الأشياء الطيبة الكائنة بين الأرض والسموات والتى هى جديرة بالتضحية والصلاة من أجلها ، والتى يجب أن يعبدها الإنسان المؤمن . نحن نعبد أرواح الحيوانات المفترسة والمستأنسة ، نعبد أرواح الأناس القديسين والنسوة القديسات ، من ولدوا فى أى زمن ، من هم ضمائرهم فى نضال ، أو ستناضل ، أو ناضلت من أجل الخير» .

obeikandl.com